صورة عن النثر الجاهلي ، لأنه نثر قرآني ، ليس متفرداً ببعض الصفات الأدبية فحسب بل هو متفرد في أسلوبه متفرد في بلاغته متفرد في إعجازه . وكان من بين وجوه إعجازه الأدبي أنه وإن كان نثراً فنياً[1] إلا أن الشكل الذي وضعت فيه معانيه لم يكن في صورة شعر أو خطابة كتلك التي عرفها العرب في الجاهلية ونبغوا فيها ، وبذلك أعجز قوماً كانوا أصحاب بيان ولكن ليس من نوع بيانه ، كما نقلهم بمضمونه نقلة قوية من الجاهلية إلى الإسلام بما سنه لهم من سنن وشرع لهم من شرائع ، وهو في هذا لم يفجأهم بنص كامل دفعة واحدة ، وإنما استغرق نزوله حياة الرسول على امتداد فترة البعثة ، وهي الفترة التي امتدت ما يقرب من ربع قرن .

لكن الكاتب نفسه يعود بعد ذلك وكأنه يشير إلى شيء آخر يمكن أن يكون على نقيض ماذهب إليه من قبل ، وذلك حين يقول :

« ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول إلى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربي ثلاثة قرون أو قرنين قبل الإسلام ، وإذن بقي القرآن وحده يتقدم إلينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيهاً موثوقاً به قبل الإسلام كما يعتقد المسلمون »[2] .

---

(١) القرآن ليس شعراً كما هو معروف ، أما أن يكون ليس نثرا ، فهو ما يراه الدكتور طه حسين حين يقسم الكلام إلى شعر ونثر وقرآن، فيقول « ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً ، ولا يمكن أن يسمي بغير هذا الإسم .. فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر ، كما نص هو على أنه ليس شعراً . . . وإذن فمن الحق أن نضع القرآن في مقامه الخاص الذي لا يصح أن يقاس به شيء آخر ، وأن نبحث عن النثر العربي » . (من حديث الشعر والنثر ص ٢٥) .

(٢) النثر الفني . . ص ٥٣ .